العدد 1914 - السنة السابعة
الاربعاء 18 رمضان 1435 - الموافق 16 يوليو 2014
Wednesday 16 July 2014 - No.1914 - 7th Year

جامع قرطبة الكبير.. شاهد على عصر المسلمين الزاهر في بلاد الأندلس

بدأت علاقة العرب بالأندلس عندما نجح عبد الرحمن الداخل عام 756م في تأسيس خلافة أموية في الأندلس ظلت حاكمة ما يقرب من ثلاثمائة عام ، تحت الخلافة الأموية ورعايتها أينع أسلوب فني عظيم مسمي بالأسلوب الإسلامي الأندلسي وكان مركز هذا الاشعاع المسجد الكبير الذي أقامة العرب في قرطبة وأطلق عليه اسم المسجد الجامع «والذي اتخذت منه الجامعات اسمها».

يعتبر مسجد قرطبة الجامع أو جامعة قرطبة التي خرجت إلي حيز الوجود عام 170هـ – 786م أول جامعة شهدها عالم الغرب وكانت تسمي بالجامع الأعظم دار العلوم ومجمع العلماء وكعبة المعرفة.

أوصافه ومساحته

يعد جامع قرطبة أكبر المساجد الإسلامية في الأندلس وثالث المساجد الإسلامية الكبري في الإسلام بعد مسجدي سامراء وابي دلف . كانت مساحة مسجد قرطبة المتوازي الأضلاع حيث يبلغ طوله من الشمال إلي الجنوب في اتجاه القبلة 178 مترا وعرضه من الشرق إلي الغرب حيث أبواب مداخله المتعددة 125 مترا وتبلغ مساحته الكلية 32500 متر مربع وهو مايغطي مساحة قدرها خمسة أفدنة بينما كانت مساحة كل من مسجدي سامراء وابي دلف 28000 متر مربع علي التوالي.

أشهر المساجد

ويعد مسجد قرطبة من أحفل مساجد الإسلام تاريخا وأكثرها أهمية معمارية في كلتا الناحيتين الانشائية والزخرفية بجانب تجانس مراحل تنفيذه واندماج الزيادات التوسعية في التكوين الأصلي.

تبدأ قصة بناء جامع قرطبة عندما انتصر عبد الرحمن الداخل في فتح قرطبة وأصبح أميرا علي الأندلس وجعل من قرطبة عاصمة لملكة وبني لنفسه قصر الرصافة ثم قام بتحويل كنيسة قرطبة إلي مسجد للمسلمين بعدما عوض أصحابها بمبلغ كبير من المال واقطعهم أرضا شاسعة لبناء كنيسة جديدة خارج المدينة ثم شرع في بناء مسجده العظيم سنة 169هـ – 785م.

باني الجامع

شيده عبد الرحمن الداخل سنة 169 هجرية 785 – 786 ميلادية وكانت ظلة القبلة تتكون من عدد 8 بائكات تكون فيما بينهما 9 اروقة يجري جميع ذلك عموديا علي جدار القبلة اما صحن الجامع فكان يشغل مساحة تعادل مساحة جناح القبلة تقريبا ولم يكن يوجد مؤخرا ولم يرد في المصادر التاريخية ما يفيد بوجود مئذنة ولا طبيعتها ان كانت موجودة

زيدت مساحته إلي الضعف في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، بدأت قرطبة الأندلسية تأخذ أهميتها عندما جعلها عبدالرحمن الداخل، عاصمة للدولة الجديدة عام «756م». وازدهرت هذه المدينة في العصر الذهبي للأندلس، تحت حكم عبد الرحمن الثالث، وازدادت فيها المعالم والمنشآت التي يمثل الجامع الكبير أبرز معالمها

مات عبد الرحمن الداخل الذي لقب بعبد الرحمن الأول قبل أن ينتهي من إتمام بناء المسجد فقام ابنه هشام بن عبد الرحمن بإتمام بنائه وتوسعاته عام 787م وحقق امنية والده في إتمام إقامة مالا يقل عن اربعمائة مسجد وبيت للعلم والصلاة لنشر الثقافة الإسلامية الدينية والعلمية بين مختلف طبقات الشعب في انحاء البلاد.

وجعل اللغة العربية لغة التدريس في المدارس والمعاهد الأمر الذي أدى الي دخول النصاري واليهود في الإسلام وخاصة من انضموا للتعليم الجامعي بالجامع الكبير او جامعة قرطبة.

ولقد تضاعفت مساحة بيت الصلاة في تلك المرحلة بعد هدم جدار القبلة وزيادة المسجد في جهتها كما اقام أول مئذنة للمسجد علي قواعد برج الكنيسة القديمة الذي تهدم.

تصميم الجامع

تأثر تصميم جامع قرطبة بالمنشآت التي بنيت في أيام العصر الأموي الأول، وبالأخص الجامع الأموي في دمشق، حيث يشترك معه في وجود الحرم المسبوق بالصحن، ووجود مئذنة واحدة في الواجهة، شأن مئذنة العروس في دمشق، ومئذنة جامع القيروان. وقد تم بناء مئذنة جامع قرطبة في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل عام «788م»، ثم تم تبديلها في عهد عبد الرحمن الناصر «951م». وهي مئذنة ذات شكل مربع طول ضلعه 48.8 أمتار. وقد تهاوت هذه المئذنة، ولم يبق منها إلا جزؤها الأسفل.

وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر عام «961م» تم إجراء بعض الإضافات الفنية الرائعة والمشابهة للفن الدمشقي، كجدار المحراب، والسقوف المزخرفة، والعقود المفصصة، إضافة إلي العقد الحذوي. واحتوي حرم المسجد علي تسعة أجنحة باتجاه العمق، والجناح الأوسط هو أكثر الأجنحة عرضا".

الأعمدة والجدران

وأهم ما يميز الجامع هو غابة الأعمدة الموجودة في الصحن، والتي تحمل سقوف الصحن من خلال طبقتين من الأقواس المتطابقة، إضافة إلي وجود الشرفات التي تعلو سقوف الجامع في الواجهة الغربية، المتدرجة والمثلثة الأشكال، المشابهة لأسنان المشط. وقد تمت استعارتها من الفن الزخرفي الشرقي لتصبح فيما بعد شكلا أساسيا من ملامح الفن الأندلسي.

وهناك نوعان من تيجان الأعمدة، الأول هو ذلك النوع الموجود في الجزء الذي تم بناؤه في عهد عبد الرحمن الناصر، حيث الطابع الإسلامي الأندلسي المميز، كما تمتاز تيجان أعمدة الجزء المضاف في عهد الحكم بالأصالة وعدم التأثر بالفنون الغربية.

أما الجدران الداخلية فأهم ما يميزها هو المشبكات التي تغطي النوافذ كما هو سائد في بعض المباني بدمشق، في حين تحتوي الجدران الخارجية على روائع فنية زخرفية تتمثل في الأعمدة والأقواس المأطرة، وهو الشكل السائد في الأبواب الخارجية. وتغطي الفسيفساء المذهبة، والأحجار الرقيقة والصغيرة ذات الشكل المربع، سقف القبة وإطار المحراب، وكذلك الأبواب المجاورة للمحراب. وقد أعطي استعمال الأشكال والخطوط العربية الأصيلة تميزًا فريدًا ورائعًا لهذه الزخارف الفسيفسائية.

دور نشط في نشر اللغة العربية

يقول المستشرق دوزي كان الفضل لجامعة قرطبة وشبكة المساجد والمعاهد التي تشرف عليها. كان لها الفضل في نشر اللغة العربية بين الكثير من الأسبان وسارع الكثير من أهل البلاد إلي اعتناق الإسلام طواعية دون ضغط أو اضطهاد مما كان له اكبر الأثر في احتواء قاموس اللغة الاسبانية الحديثة على أكثر من خمسة آلاف كلمة عربية.

كما يذكر نفس المؤرخ دور الثقافة الإسلامية في الأندلس في ازدهار المجتمع ثقافيا وسياسيا مما كان له دور فعال في تمتع الشعوب المسيحية بالحرية والاستقلال وتحرير الفلاحين من العبودية حيث كان الإسلام أكثر تمضيدا لتحرير الرقيق من النصرانية مما كان سببا في ازدهار الزراعة والعمال وانتقل أثرها إلي البلاد الأوربية المسيحية الأخري.

وكان الفضل في تلك النهضة لجامعة قرطبة التي أرست تعاليم الإسلام وتشاريعه في دعم الهيكل السياسي للحكم.

اشتهرت جامعة قرطبة بعلوم الكيمياء والطب والطبيعة والهندسة والفلك والحساب والترجمة والشعر والأدب والفنون والموسيقي بجانب الفقة والتشريع فكان الرهبان يفدون من كل أوروبا للتعلم والدراسة في جامعة قرطبة لينقلوا لبلادهم أحدث ما وصل إليه العلم في ذلك الوقت.

انطلاق إلي العالمية

وفي جامعة قرطبة تخرج علماء الغرب الذين وضعوا حجر الأساس في إنشاء الجامعات العالمية الأولي في مختلف انحاء القارة الأوروبية ونقلوا نظم التدريس ومناهج العلوم ونوعيات موادها التي كانت جديدة عليهم إلي الجامعات التي أقاموها

كانت جامعة قرطبة تحوي أكثر من أربعمائة ألف مجلد ومخطوط وكتاب في مختلف العلوم والفنون والآداب من بينها الكثير من المخطوطات باللغات القديمة التي كان العرب يجمعونها في غزواتهم ويقومون بترجمتها وتدارك اسرارها وفك رموزها والغازها لقد انتقلت تلك التراجم العالمية إلي عالم الغرب عن طريق الترجمات العربية كما انتقل الكثير من تلك المخطوطات القديمة ومجلداتها وتراجمها التي جمعها العرب ... انتقلت من جامعة قرطبة الى الجامعات الأوربية ومتاحفها بعد خروج العرب من الأندلس.

جامعة قرطبة والزي الجامعي

ومما هو جدير بالذكر أن علماء الغرب وأساتذة جامعاته قدر لهم أن يعترفوا رغم إدارتهم بفضل العرب والإسلام على ما يحصلون عليه من علم وما نالوه من درجاته.

فحافظوا على تقاليد جامعة قرطبة بارتداء الزي الذي فرضته عليهم وهو الروب الجامعي الأسود اللون – العباءة العربية عباءة طبقة العلماء العرب ذات الوشاح الاخضر رمز الإسلام وهو الروب الذي كان يهدي لخريجي جامعة قرطبة عند حصولهم على درجة الأستاذية أو العالمية.

أما غطاء الرأس المربع الشكل الذي يحمله أساتذة الجامعات مع الروب الجامعي الأسود فهو أبدوره من التقاليد التي كان معمولا بها في جامعة قرطبة.

فعندما يتقدم الطالب لتسلم شهادة التخرج يتحتم عليه أن يضع المصحف الشريف فوق رأسه ويردد القسم وهو يضع كفه فوق المصحف اعترافا بفضل كتاب الله – المصحف الشريف على ما وهبة الله من العلم.

كانت تعلو منصة العلم بالجامعة لوحة رخامية تحمل الآية الكريمة « يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»

وقد وجدت تلك الآية منقوشة على إحدي شهادات التخرج التي كانت تصدرها جامعة قرطبة وترجع إلي عام 89 م ويحتفظ بها متحف إحدى الجامعات البريطانية.

ولم يتوقف دور جامعة قرطبة التي حملت رسالة الثقافة خلال ثلاثة قرون من عمر الزمان أفسحت فيها المجال لنشأة الجامعات في مختلف الدول الأوربية بل انتقلت شعلتها لتصبح منارا يمهد الطريق لقيام المساجد الجامعة في العالم الإسلامي امتدادا من المحيط إلي الخليج وتعبره الى البلاد الآسيوية فتقام المساجد الجامعة أو الجامعية التي ترفع راية العلم والإيمان فتظهر جامعة القرويين في أقصي الغرب وأصفهان ودلهي في أقصي الشرق.

في مقدمة تلك المساجد الجامعة التي اتبعت خطوات قرطبة سواء في تخطيطها المعماري ودورها في نشر الثقافة العلمية الإسلامية . وتعمل على جمع شمل البلاد العالم الإسلامي وتقوية الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب بتوحيد العناصر الثقافية وارتباطها بالعقيدة الإسلامية آي الربط بين العلم والإيمان تبدأ تلك السلسلة من المساجد الجامعة بمسجد قيروان في تونس أول مسجد أقيم في شمال أفريقيا وبعد أول مسجد أقيم في شمال أفريقيا وبعد مسجد قيروان في تونس أقدم المساجد الجامعة فقد بدأ العمل في بنائه الامير هشام عام 109 هـ / 727 م أي قبل بناء مسجد قرطبة نفسه ولكن بناءه لم يتم إلا عام 836 م أي مع مسجد قرطبة في الاندلس.

كان في المرحلة الأولي من بنائه قد أعد كمسجد للصلاة فقط وعلوم الفقة والشريعة ثم تحول إلي مسجد جامع تقليدا لمسجد قرطبة في القرن التاسع بعد توسعته ومضاعفة مساحته الأصلية.